قصّة زكريا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ أَعِنْ

زكريا نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل من نسل سليمان، وكان الرجل الأوَّل في بني إسرائيل، يقدِّم القرابين في بيت المقدس.

ومن أجلّ الأعمال التي قام بها أنَّه كفل قريبته مريم ابنة عمران، أمُّ المسيح عليهما السلام، والتي نذرتها أمها وهي حامل بها لخدمة بيت المقدس على عادة أهل ذلك الزمان.

ولما أراد أن يكفلها زكريا قامت قيامة أحبار بني إسرائيل واختصموا فيما بينهم. وقالوا لزكريا: علينا أن نقترع على من يكفلها، وقاموا برمي أقلامهم التي يكتبون بها التوارة في ماء نهر الأردنّ. وقالوا: أيُّنا وقف قلمه في ماء النهر فهو الذي يكفلها. ووقف قلم زكريا فكفلها. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44].

وكفل زكريا مريم وبنى لها محراباً في المسجد يُصعد إليها بسلم، ولم يكن يدخل عليها في محرابها سواه، وكان يأتيها كل يوم بما يلزمها من طعام وشراب.

وكانت مريم ذات عفَّة وعبادة وإخلاص لله تميَّزت بها على سائر الناس، وكانت من شدَّة عبادتها أن ظهرت عليها كرامة الله.

وكان ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران:

37]. لم يأت به هو. فقد كان يرى عندها فاكهة ورزقاً في غير موسمه، فتعجَّب وهو وحده الذي يدخل عليها. ولما تكرَّر الأمر ابتدرها و﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: 37].

ساعتئذٍ أدرك زكريا أن في الأمر سرًّا وأنَّ ذلك المكان مكان تجاب فيه الدعوات، فانشغلت نفسه بأمره، وأمر بني إسرائيل الذين خاف عليهم من بعده من الموالي، وهم العصبة من الرجال الذين يلونه في القيام بأمر بني إسرائيل، لا يحسنون سياسة وقيادة قومه من بعده. وكان زكريا في عمر مسنٍّ، قارب المئة وعشرين سنة، وتَذكّر سنَّ امرأته العاقر التي شارفت على الثمانية والتسعين عاماً.

ومع كل هذه الأمور، وحينما رأى من قدرة الله الذي أتى بالرزق لمريم في غير موسمه، قادر على أن يهب له ولداً وهو في هذا العمر المتأخِّر.

وفي ذلك المكان الطاهر توجَّه زكريا إلى الله بالدعاء ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: 38].

وقام إلى صلاته ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: 39].

وكانت البشارة تتناول عدَّة أمور منها:

1 - أنَّ دعاءه قد استجيب.

2 - أنَّ الله سيهبه ولداً ذكراً.

3 – أنَّ الله سمَّاه يحيى، بينما الأولاد الباقون حين ولادتهم يسمّيهم آبائهم.

4 – أنَّ اسم يحيى كان أوَّل اسم في الأرض.

5 – أنَّ الله بشَّره بما يكون من أمر هذا الغلام في مستقبله، وبأنَّه سيكون مصدِّقاً بكلمة من الله. وكلمة الله هو عيسى ابن مريم. فيحيى هو الذي سيُبشِّر بقدومه وأنَّه في زمانه.

6 – أنَّ الله أخبره بأنَّ يحيى سيكون سيداً في بني إسرائيل يهديهم إلى طريق الله المستقيم، ويسود قومه بالعلم والحلم والفضل.

7 – أن الله أخبره بأنَّ هذا الغلام سيكون حصوراً لا يميل إلى النساء بطبعه مع سلامةٍ في حواسه وخلقته.

8 – أنَّ الله سيهب هذا المولود صفة أخرى فوق تلك الصفات التي ذُكرت، وهي أنه سيكون نبيًّا من الصالحين.

كل تلك الكرامات في تلك البشارة. ممَّا دعا زكريا إلى التعجُّب من نفسه، وتذكَّر ما به من كبر السنِّ وأنَّ زوجته عاقر لا تلد. ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 40].

ساعتئذٍ نادى ربَّه و﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ﴾ [آل عمران: 41]، أَعْلَمُ بها حَمْلَ امرأتي، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ﴾ [آل عمران: 41]، أي: دون آفةٍ تمنعك من الكلام بدليل ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: 41].

فآية الله لزكريا جعلها بأنَّه لا يستطيع أن يخاطب الناس مدة ثلاثة أيام، بحبس لسانه عن الكلام العادي، ولا يستطيع التعبير إلا رمزاً

بالإشارة. أما الكلام بالتسبيح والذكر فأبيح له بالعشيّ[1] والإبكار[2].

وصوَّر لنا الله تبارك وتعالى حالة زكريا، ورغبته في الولد أو فيمن يخلفه في قيادة بني إسرائيل في مطلع «سورة مريم» حين قال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: 2-11].

بعد ذلك خرج زكريا على قومه من مصلاه محبوس اللسان، وأشار إليهم أن سبِّحوا ربَّكم بكرة وعشيًّا.

وانتظر زكريا تحقيق أمر الله له، ورعى زوجته الحامل واهتمَّ بأمرها، حتى وضعت مولوداً ذكراً جميلاً سَمَّوْهُ: يحيى. وكبر يحيى وكان بارًّا بوالديه.

---

(1) العشيُّ: من الظهر إلى الغروب.

(2) الإبكار: من الفجر إلى الضحى.

واستمرَّت حياة زكريا على وجه هذه الأرض، يدعو إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة، شأن غيره من أنبياء الله حتى كانت نهايته على يد بني إسرائيل.

وذلك أنَّ بني إسرائيل قتلة الأنبياء لحقوا به ذات يوم وأرادوا قتله. فخافهم، وهرب إلى البراري، ودخل في جوف شجرة كبيرة. وإذا بالقوم يرون طرف ردائه، فجاؤوا بالمناشير ونشروه مع الشجرة فسقط شهيداً.

العبر من قصّة زكريا:

يؤخذ من قصّة زكريا عدَّة عبر منها:

1 - أنَّ الله يستجيب الدعاء لمن دعاه ولا يعجزه شيء إذا أراد أن يعطي عبداً، فقدرته مطلقة.

2 - على الإنسان أن يأخذ بالأسباب، لأنَّ الحياة قائمة عليها.

3 - حين تحدَّى أحبار اليهود زكريا، في كفالة مريم، بأمر صعب، حقَّقه الله له معجزة واضحة.

4 - أكرم الله زكريا فجعله كافلاً لمريم أمِّ عيسى.

5 - إكرام الله مريم ذكَّرَ زكريا بحاجته إلى إكرامه.

6 - مشروعية طلب الذرِّيَّة الصالحة.

7 - إنَّ الرزق يأتي من عند الله إن كان عافية أو طعاماً أو ولداً أو أموالاً.

8 - علم الله محيط بأحوال عباده ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.

9 - إنَّ حبس لسان زكريا عن الكلام العاديِّ دليلٌ حسيٌّ على قدرة الله المطلقة، إذ كان يسبح ويذكر الله ولا يستطيعَ أن يتكلَّم بكلام الناس.